

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بالشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربي، وبالمثل عن مجتمعا والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي لشعرائها المبكرين: عدي بن الرقاع العاملي والطرماح الطائي والوليد بن يزيد، وترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول لشعرائها الأفاضل: منصور النمري والعتابي وأبي تمام، كما ترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني لشاعريها البارعين: البحتري والصنوبري. ومنعاً للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعاً في هذا الجزء وقصره في تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسي الثاني.

وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربي لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يُظل العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي، ثم ما كان من تحول الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسستا بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين في شمالها بحلب ثم إمارة بني مرداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها في أواخر القرن الخامس الهجري، وجهاد عماد الدين زنكي في القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب- لهم- جهاداً عظيماً، و ضربات صلاح الدين الأيوبي لجموعهم ضربات قاصمة وساحقة لهم في حطين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول في عين جالوت شر ممزق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائياً. ويدور الزمن دورات، فتتزلها- مع مصر- جحافل العثمانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تُشرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامي - حين الفتح العربي - يضم أخلاطاً من أمم شتى آسيوية وأوروبية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكوناً منها أمة شامية عربية واحدة. وصبت فيها - زمن الدولة الأمية - كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها في تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت - بعدها - تنعم بعيش رغد لما فيها من أنهار وعيون وزروع وفاكهة متنوعة ونقل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون - من قديم - صناعات الخزف والأثاث والمعادن والزجاج الملون والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المماليك، إذ كانت بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوروبا. وعُرِفَت - مثل شقيقاتها العربيات - كثيراً من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع في جوانب من ديارها وتعددت بها فرقة المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية دروز وفداوية، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية في الشام نشيطة، وألّمت بما كان بها - قديماً - من تراث يوناني علمي وفلسفي، وتحديث عن رعاية حكامها - منذ الفتح العربي - لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجري وكثرتها كثرة مفرطة في القرون التالية. ألّمت بحركة الترجمة في القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعاً عرضاً تاريخياً دقيقاً، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخياً، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابهن في السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم، وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية في الشام على مر الزمن، وأتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجلين.

وتحدثت عن اللغات في الشام قبل الفتح العربي وكيف أنها كانت قد أخذت في التعرب قبله بقرون، وتم لها هذا التعرب سريعاً بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعاً. ولم يكن لها في الشعر العربي نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت في الدين الحنيف وهاجرت إليها جموع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر في ألسنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء نابهن.

وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يفدون على دمشق لمديح الخلفاء، ونبغ في البيت الأموي وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة في ازدهار الشعر العربي في العصرين العباسيين: الأول والثاني ويتكاثر شعراء الشام في القرن الرابع الهجري وتموج بهم حلب في عهد سيف الدولة الحمداني، ويترجم الثعالبي في كتابه "اليتيمة" لكثيرين منهم، كما يترجم الباخري في كتابه "دُمية القصر" لطائفة من مشهورهم في القرن الخامس الهجري، ويترجم العلماء الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - عبده - بالشعراء الشاميين في أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة في الأشكال الجديدة من الشعر الدوري فتكثر بها المسمّطات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشّاح. ومنذ أبي تمام يُكثر شعراؤها من البديعيات، ويدخل الشعراء عليها صوراً مختلفة من التعقيدات.

وأخذت أحل شخصيات شعراء الشام في عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجري، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخياط بملكته العشرية الخصبة، وللفلسفة والحكمة أعلامهما يتقدمهم أبو العلاء المعري مفخرة الشام الذي لا يماثله أديب سابق ولا لاحق في الأدب العربي شعراً ونثراً، وللتشبيح أعلامه يتقدمهم كُشاجم بلوعاته وأناته لفاجعة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبد المحسن الصوري الذي نوه به ابن خفاجة درة الأندلس طويلاً في ديوانه، وللفخر أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمداني بروميّاته التي جسد فيها الفروسية العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام في شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. مع كل علم من الشعراء جميعاً ما يتميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء في الشام خمسة وثلاثين شاعراً فذاً. وذكرت بينهم في كل غرض من أغراض الشعر شاعراً مجيداً من الشعراء في أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمت لهم كتب الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح في تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها. وإنما اكتب تاريخ شعرها ومن تطوراها به وتركوا فيه بصمات واضحة جعلت لهم حظاً كثيراً أو قليلاً من الشهرة والمجد الأدبي. وفسحت

لدراسة الشعر الشعبي وترجمت لأهم أعلام الزجالين بالشام: أبي العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أرجالته.

وترقى الرسائل اليونانية بالشام في عهد الدولة الأموية وتوضح رسومها وتقاليدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طوى فيها من رقي إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب في الشام وأخذت تعنى بها الديوان وتختار له كتاباً بلغاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية في زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتابي في أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللبغاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلبث أبو العلاء أن يهدي إلى قراء العربية رسائله الشخصية الفذة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكرة أو مهنته أو معاتبة أو معزية، وهي - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائماً على السجع والمحسنات البديعية. ويكثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أديب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريري في مقاماته، وإنما تعتمد غالباً على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو ثمار، وهي بذلك أشبه برسائل مظمة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء، وجميعه تسييح وتحميد وتمجيد في الله العلي العظيم، ويجري ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حكماً بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نثرية رائعة، في مقدمتها رسالة الغفران لأبي العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتي الشاعر الإيطالي كتابه " الكوميديا الإلهية". ومن الأعمال النثرية الفنية رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقي وفيها يسأل النسر البلبل عن السر في جمال صوته وسحره، ويدور بينهما حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمه، ومنها كتاب نسيم الصبا لابن حبيب في وصف الطبيعة والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لأبن عريشاه، وفيه يتناول كثيراً من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أنني عرضت في صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربي في الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربي وبالمثل صورة مجتمعها والنشاط الثقافي والعلمي بها مسترشداً بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعج أنني صورت ذلك كله تصويراً تاماً، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله وليّ الهدى والتوفيق.

القاهرة في ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقي ضيف